المقدمة

أ- أهمية الموضوع وإشكاليته:

لا تزال ظاهرة إستقطاب عنصر الماء للسكان في المغرب الأوسط في الفترة الوسيطية، يحيط بفصولها الكثير من الغموض، فالدارس لا يكاد يظفر ببحث في مثل هذا النوع من المواضيع، لأن المتاح منه لا يعدو أن يكون نصوص شحيحة في بطون المصادر، قد لا تكون كافية بأن تعطي تصورا ملما لهذه الظاهرة، ولعل أهم مصادر المياه في هذه المنطقة وفي نفس فترة الدراسة هي الروافد المائية.

وقد أهملت دراسة هذه الأخيرة بشكل واضح وبخاصة نهر شلف الذي يعتبر أهم أنهار المغرب الأوسط ومنه أهملت معه دراسة المجال الذي يسير فيه، والتركيبة الديموغرافية التي تكون قد إستقطبتها ضفافه من القبائل البربرية المحلية على إختلاف أصولها وفروعها، والعنصر العربي الوافد الجديد على المنطقة برمتها، وكذلك العناصر السكانية الأخرى، وما سيصحب هذا الحضور الديمغرافي من إزدهار للمدن والقرى التي تكون قد قامت بمجاله، وما سينجر عنه من ظهور للعديد من الأنشطة الإقتصادية المقترنة بمياه هذا الرافد المائي، والتي تكون قد مارستها هذه العناصر السكانية التي سبق ذكرها.

وقد إرتأيت الخوض في غمار هذا النوع من المواضيع لجملة من الإعتبارات:

- أولا: أهم هذه الإعتبارات هي طبيعة هذا النوع من المواضيع والذي يعتبر في حد ذاته تحديا للباحث بإعتباره مجال خصب للبحث كما أنه موضوع مستفز ومثير وغير متطرق إليه.

- ثانيا: ما صادفته من إهمال من أصحاب الإختصاص في دراسة الروافد المائية من حيث سياقها التاريخي وتأثيراتها على المجال الذي تسير فيه خاصة ما يتعلق منها بالمغرب الأوسط، فعلى حد علمي لم تتقاطع إشكالية موضوع بحثي مع أي دراسة سابقة.

- ثالثا: توفرت لدي عدد من الإشارات حول هذا الموضوع، القسم الأكبر منها في كتب الرحلة والجغرافيا، يمكنني تتبعها ولملمتها، ثم الإنطلاق منها كي أوفر للقارئ تصورا عن الدور التاريخي الذي يكون قد لعبه هذا الرافد المائي وساكنته في تاريخ المغرب الأوسط.

- رابعا: العمل على كشف الغموض الذي يحيط بالتركيبة الديموغرافية التي سكنت ضفاف نهر شلف والذي تكون قد تغلبت عليه القبائل البربرية على إختلاف فروعها.

- خامسا: تسليط الضوء على أهم المدن والقرى التي قامت على ضفافه، مع توضيح وما رافق هذه الأخيرة من أنشطة إقتصادية مقترنة بهذا النهر، بحكم طبيعة موضوع بحثي.

- سادسا: رغبتي في الخوض في موضوع لم يتطرق له من قبل، والخروج عن روتين المواضيع العادية والمكررة التي تقوم بدراسة التواريخ السياسية والجوانب الحضارية للدول والمدن الكبرى، والتي قتل أغلبها بحثا.

– سابعا:التطرق إلى معالجة الإشكالية الرئيسية لموضوع بحثي، بالحصول على تصور كافي وملم حول تأثير نهر شلف في المنطقة التي هي في مجال خط سيره على جميع الأصعدة وفي السياق التاريخي، وبخاصة من حيث التركيبة الإثنية لهذه الأخيرة، ومن هذه المنطلقات تكمن المساءلة عن:

– ماهية نهر شلف وجغرافية خط سيره وأهم الأودية المكونة والمغذية له؟

– ماهي العناصر السكانية المستقرة على ضفاف نهر شلف في الفترة الوسيطية؟

– وهل يصح القول بأن لهذا النهر تأثير على العمران والتركيبة الديموغرافية للمنطقة التي هي في خط سيره؟

– وكيف إستفادت هذه العناصر السكانية على إختلاف أصولها وأعراقها، من مياه هذا النهر في الشق الإقتصادي؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها هي التي ستتخذ كمفاتيح لمعالجة موضوع بحثي.

ب– المنهج:

لقد إتبعت المنهج التاريخي المناسب لموضوع الدراسة التي أقوم بها في مختلف جوانب هذه الأخيرة، بحيث إعتمدت على آليات هذا المنهج كالوصف أثناء وصفي لطبوغرافية وعمران مجال نهر شلف كما إستخدمت آليتي التحليل والإستنباط فيما سبق ذكره وكذلك فيما يتعلق بالتركيبة الديموغرافية والجوانب الإقتصادية لهذا المجال الذي هو محل دراسة، كما حرصت أشد الحرص على إستقصاء المادة العلمية من مصادرها الأصلية، وإثباتها في مواضعها، مراعاة للأمانة العلمية، وحرصا مني على التوثيق، قدر الإمكان مع إبداء الرأي إن أمكن، وإستنباط النتائج والحقائق.

ج– الصعوبات:

واجهني أثناء إنجازي عملي هذا العديد من الصعوبات، يعود معظمها إلى ضيق الوقت، الذي لم يستجب لتطلعاتي في الإلمام بموضوع بحثي، بتبيان التأثير الفعلي لنهر شلف في المنطقة التي يسير فيها على جميع المستويات، بالإضافة إلى قلة المادة العلمية في نصوص المصادر التاريخية، وإنعدام الدراسات التاريخية الحديثة حول هذا الموضوع بشكل يدعو إلى الريبة، بالإضافة إلى تسقيف عدد صفحات مذكرات التخرج، مما سوف تكون له تداعيات على هذا العمل بطبيعة الحال.

د- عرض الموضوع:.

وفقا لما تأتى لي من مادة علمية، أدرت البحث على ثلاثة فصول، فصل تمهيدي وفصلين يتضمن الفصل الأول ثلاثة مباحث والفصل الثاني مبحثين، وقد إستهللت الموضوع بمقدمة إستعرضت فيها أهمية الموضوع ودواعي إختياره وإشكاليته، والمنهج الذي اتبعته، ودراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع المعتمدة.

وقد جاء الفصل التمهيدي بعنوان: "**طبوغرافية مجال نهر شلف**"، وفيه حاولت.التعريف بهذا الرافد المائي ويتضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث، المبحث الأول خصصته لظبط أصل تسميته، والمبحث الثاني تناولت فيه موقعه الجغرافي، والمبحث الثالث عددت فيه أهم الأودية المغذية والمكونة لنهر.شلف.

أما الفصل الأول الذي صغته بـعنوان: " **التركيبة الديموغرافية لمجال نهر شلف**"، والذي تعرضت في مبحثه الأول " **القبائل البربرية**"، لأصول هذه الأخيرة، وركزت على أهم هذه الفروع البربرية وأكثرها إنتشارا في المجال الجغرافي لنهر شلف، مع تبيان مناطق الإنتشار عند توفري على القرينة التاريخية من المادة المصدرية التي بحوزتي، كما عملت في مبحثه الثاني "**العنصر العربي**" على إبراز البدايات الأولى لظهور هذا العنصر بالمنطقة التي يمر بها، وركزت على أهم قبيلة عربية إستقرت بهذه المنطقة (قبيلة بني هلال)، أما المبحث الثالث فقد خصصته لبقية "**العناصر السكانية الأخرى**" والتي إستوطنت نفس المجال كالأفارقة واليهود والأندلسين والعبيد من السود وحتى من الصقالبة.

في حين خصصت الفصل الثاني "**للعمران والجوانب الإقتصادية لمجال نهر شلف**"، والذي قسمته إلى مبحثين، أولهما "**العمران**" وهو بدوره قسمته إلى مطلبين الأول تطرقت فيه لـ: "المدن" والثاني تطرقت فيه لـ: "القرى" التي قامت على ضفاف هذا الرافد، بينما "**الجوانب الإقتصادية** " تعرضت إليها في المبحث الثاني وهذا قسمته إلى ثلاثة مطالب أولها لـ: "الجانب الفلاحي"، وثانيها لـ: "الجانب الصناعي"، وثالثها لـ: "الجانب التجاري"، وكل منها تكون قد مارستها ساكنة ضفاف هذا النهر.

وأخيرا خلصت إلى خاتمة لبحثي، والتي ضمنتها مجمل النتائج التي توصلت إليها. ثم ذيلت بحثي هذا بخريطتين الأولى توضح مجرى نهر شلف وأوديته والثانية توضح أماكن إنتشار أهم القبائل البربرية والعربية المستقرة على ضفاف هذا الرافد المائي في قسم الملاحق.

هـ- تحليل ونقد المصادر والمراجع:

- **المصادر:**

- **كتب الرحلة والجغرافيا:**

- **صورة الأرض** لأبي القاسم بن حوقل (ت.367هـ): يعتبر من أهم وأقدم كتب الجغرافيا إذا راعينا العصر الذي عاش فيه صاحبه، والذي عاصر الدولة الفاطمية، بالإضافة إلى أنه زار بلاد المغرب بالتالي يجب على أي باحث يتطرق لهذا النوع من المواضيع الإعتماد عليه، وقد أفادني في كثيرا في جوانب بحثي خاصة فيما يتعلق بتوضيحه لحالة المدن والقرى التي قامت على ضفاف نهر شلف وإستفادة ساكنة هذه الأخيرة من مياهه خاصة في الجانب الزراعي وإستقيت كل هذا في سياق وصفه لطرق التجارة في وقته.

- **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** لأبي عبيد الله البكري (ت.487هـ): وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، وهو الأخر من أهم كتب الجغرافيا التي تناولت المغرب الأوسط،لكن البكري لم يقوم برحلة لبلاد المغرب بل إكتفى بجمع مادة كتابته من المؤلفات الأندلسية في هذا المجال وكتابه من أكثر الكتب التي إعتمدت عليها وهذا لطبيعة موضوعي لما فيه من وصف للمدن والقرى والطرق التجارية لهذا الإقليم، وهو ما أفادني في الشق الذي يتحدث فيه عن المدن والقرى والطرق التجارية التي هي في مجال نهر شلف.

-كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس للشريف الإدريسي (ت.560هـ):وهو جزء من كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، وهو الأخر تنطبق عليه ومواصفات وفائدة قيمة سابقيه، فقد جاء على منوال ونسق البكري، والذين لمست فيهم تشابه المعلومات وتطابقها بشكل يكاد يكون حرفيا، ولا أدري إذا كان مجرد إستنساخ ونقل من المؤلف المتأخر على من سبقه، أو هذا التشابه هو رحمة للباحث لأنه يدل على صدق وصحة وثقة أصحاب هذه المصادر.

-كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان (ت.956هـ.):من أهم كتب الرحلة التي تطرقت لبلاد المغرب الأوسط ومن أكثرها خوضا في طبوغرافية هذه المنطقة، لكن ما يعاب عليه هو ما ورد فيه من معلومات خاطئة ويظهر هذا من خلال، إنتقاد وتعقيب محقق هذا المصدر عليه في الكثير من المرات في هامش صفحات الكتاب.

ومن كتب التاريخ:

-كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لعبد الرحمن بن خلدون (ت.808هـ): يتفق المؤرخين على أن كتاب العبر يعد المصدر الأول الذي يجب الاعتماد عليه في دراسة تاريخ المغرب الإسلامي ،باعتباره موسوعة تاريخية

شاملة، ، وقد أفادني ج2،ج6،ج7،منه في دراسة أصول القبائل البربرية وحتى العربية وأهم مواطن إنتشارها في مجال نهر شلف لأنه نقل عن نسابة البربر وعاش معهم، ومنه يمكن القول بإمكانية تصنيفه ضمن كتب الأنساب بالإضافة إلى الإشارات الكثيرة في ثناياه حول نهر شلف ومنبعه وإجتماع الكثير من الأودية فيه.

ومن كتب الأنساب:

– كتاب جمهرة أنساب العرب لإبن حزم الأندلسي (ت.456هـ):حسب إعتقادي يعتبر أهم وأقدم مصنف في أنساب العرب وحتى البربر، الذين خصص لهم جزء يسير من كتابه، ما يعزز وجهة نظري حول أهميته شهادة بن خلدون بأمانته وثقته وهو نفسه نقل عنه، وقد إعتمدت عليه في مسألة أصول البربر والقبائل البربرية وبطونها.

- **المراجع:**

– **كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث** لمبارك بن محمد الميلي: من أكثر المراجع التي إعتمدت عليها لما له صلة بموضوع بحثي، فإعتمدت عليه في جزئه الأول فيما يتعلق ببعض بطون القبائل البربرية الساكنة لضفاف نهر شلف ومواطن إنتشارها، وعلى جزئه الثاني في معرفة المدن والقرى التي قامت على ضفاف هذا النهر.

– **كتاب القبائل الأمازيغية** للدراجي بوزياني :أفاداني جزئي الكتاب الأول والثاني كثيرا في تكوين صورة ملمة عن القبائل البربرية، وعن أهم بطونها ومناطق إنتشار بعض منها، وبخاصة بطون زناتة البترية.

– **كتاب الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين** (9-10م) لجودت عبد الكريم يوسف: أهم الكتب الذي إستفدت منه فيما يتعلق بالأنشطة الإقتصادية لساكنة هذا النهر وخاصة في الجانب الفلاحي والمحاصيل الزراعية على وجه التحديد.

– **كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية** لسليمان الباروني: في جزئه الثاني مع العلم أن جزئيه الأول والثالث مفقودان ولم يعثر عليهما لحد الساعة وإستعنت به في ضبط خط سير نهر شلف ومعرفة المناطق التي يمر بها، وبعض المدن التي تقاطعت ومسار هذا الأخير.

– **كتاب المغرب الأوسط في ظل صنهاجة** لمحمد الطمار: هو الأخر خدم بحثي كثيرا خاصة فيما يتعلق بالمدن ذات الأغلبية الصنهاجية، فضلا عن تعرضه لأهم الطرق التجارية في العصر الوسيط، والتي يمر قسم كبير منها على مجال نهر شلف.